

أثر الاتصال الأدبي والعلمي بين الأندلس والمشرق في عصر دولة بني أمية بالأندلس

إعداد: د.أبوالقاسم إبراهيم المهدي

المستخلص

تتناول هذه الورقة بعض صور الاتصال الذي تم بين الأندلس والدولة العباسية في حقبة دولة بني أمية بالأندلس ، واقتصرت على بعض الأعلام الذين تنقلوا بين الدولتين وأدوارهم التي قاموا بها ، والآثار التي خلفوها، وثمار هذا الاتصال التي جُنت في العلم والأدب وفي ضروب الحياة الإنسانية، وأول محاور هذه الورقة تحدّثت فيه عن قدوم زرياب المغني إلى الأندلس ودوره في فنّ الغناء والحياة الاجتماعية، والمحور الثاني تناولت فيه وفادة أبي علي القالي إلى الأندلس واحتفاء الأندلسيين به وأثاره العلمية وما نقله معه من المشرق، والثالث عن رحلات الأندلسيين للمشرق ودرها المهيم في الاتصال الثقافي، وفي الرابع أوردت بعض ما أثمره ذلك الاتصال من آثار في العلم والأدب.

المحور الأول: قدوم زرياب المغني:

إنّ من دوافع الاتصال بين المشرق والأندلس هو رباط التراث الممتد في الأدب منذ عصره الجاهلي ، والذي يمثل قاسماً مشتركاً بين الأندلسيين والمشاركة ينهلون منه لتقويم أدبهم في شكله ومضمونه وروحه ، ويستلهمون هذا التراث من تأليفهم في سائر العلوم، فبقي أدباء المشرقين فلذات خالدة في هذا التراث العظيم . ومن هذه الدوافع الحنين والذي كان يشدّ الأندلسيين ناحية المشرق ، فهم يرون فيه بعضهم ، بل ذواتهم كما نلاحظ ذلك عند الأمير عبد الرحمن الداخل :

أيّها الراكب الميمم أرضي أقر السلام من بعضي على بعضي
إنّ جسي كما تراه بأرضٍ وفؤادي ومالكه بأرض
فُدير البين بيننا فافترقنا وطوى البين عن جفوني غمضي

قد قضى أن البعاد علينا فعسى باقترابنا سوف يقضى (المقري ، نفع الطيب ، تحقيق إحسان عباس، دار صادر ١٣٨٨هـ، ١٩٦٨م).

وتثور ذكريات الأندلسيين كلّما لاح لهم برقٌ ، أو تبدت لهم نخلةٌ ، أو لَوَّح لهم ركبٌ .

كان أهل المشرق يتوقون إلى المغرب كما كان أهل الأندلس في غاية الإعجاب بالمشرق، " فتوالت في هذا العصر هجرات العلماء والأدباء والمغنيين ومن هؤلاء المغني زرياب (على بن نافع ، من أعلام المغنين بالشرق) الذي قدم إلى الأندلس سنة ٢٠٦هـ ، فأكرم أميرها الناصر وفادته ... وعلت منزلته عند أمراء الأندلس ، وأحسنوا إليه حتّى كادوا يُفِرطون في ذلك ... وكان لديهم عمدة للمغنين ، وله طريقٌ أخذت عنه ، وأصوات استفيدت منه ، ونهض بصناعة

الغناء في الأندلس واخترع للموسيقى نظاماً خاصاً جديداً ، وأضاف إلى العود وترّاً خامساً ، ووضع طرقاً للغناء أصبحت علماً خاصاً اشتهرت به الأندلس ... ولا يزال أثر زرياب باقياً بالأندلس إلى اليوم " (المقري ، نفع الطيب ، ١٩٦٨م).

ويروى لنا المقريّ في (نفع الطيب) قصة هجرته ، فقد كان زرياب قد برع في الغناء ببغداد أيام الرشيد ، وأسمع الرشيد غناؤه فسمعه وأعجب به ، وأوصى أن يُعتنى بشأنه فما كان من أستاذه إسحاق الموصلي إلا أن لحقته غيرة قويّة ، وخاف من منافسته ، يقول المقريّ : "فسقط في يد إسحاق وهاج به من داء الحسد ما غلب على صبره فخلا بزرياب وقال : يا على إن الحسد أقدم الأدوية وأدواها ... ولولا رعيّ لدمت تربيتك لما قدمت شيئاً على أن أذهب نفسك ، ويكون في ذلك ما كان فتخيّر في ثنتين لابد لك منهما : إما أن تذهب عني في الأرض العريضة لا أسمع لك خبراً بعد أن تعطيني على ذلك الأيمان الموثقة ، وأنهضك لذلك بما أردت من مال وغيره وإمّا تقيم على كرهى ورغبي مستهدفاً إليّ . فخذ الآن حذرک مئی ، فلست والله أبقى عليك ولا أدمع اغتيالک باذلاً في ذلك بدني ومالي ، فاقضي قضاءك . فخرج زرياب لوقته وعلم قدرته على ما قال واختار الفرار قدّامة فأعانه إسحاق على ذلك سريعاً وراش جناحه فرحل عنه ومضى يبغى مغرب الشمس " (المقري ، نفع الطيب) .

و هناك في الأندلس تعدّت آثار زرياب مجال الغناء وأدوات الطرب إلى مناحي الحياة الاجتماعية المختلفة ، فصارت قدوةً لأهل الأندلس ، " وسن لهم سنناً في آداب الاجتماع عنه ونسبت إليه ، فقد روى أنّه عرّف الأندلسيين على ألوان جديدة من الطعام ، وهو أول من اعتنى بالهليون المسّى بلسانهم الأسفراج ولم يكن أهل الأندلس يعرفونه قبله ، وهو الذي دلّم على فنون جديدة في الطعام وفي ترتيب المائدة ، وأرشدهم إلى اتخاذ أنية الزجاج الرفيع بدلاً من أنية الذهب والفضّة ، ونقل إليهم أزياء من اللباس ، وغير ذلك من الأمور التي تدلّ على ذوقه المرفه وتعكس أثر الحضارة المشرقيّة .

وقد استطاع زرياب أن ينقل غناؤه إلى أكثر بقاع الأندلس ، بفضل أبنائه وجواريه الذين وفدوا معه وتلقوا على يده صناعته وحفظوها ونشروها وقد كان لهذه النهضة الغنائية فيما بعد في موسيقى الغرب أيضاً، وفي شعره الغنائي . وجاء بعد زرياب أبو بكر بن باجة الغرناطي مؤلف الألبان فكان أن ارتقى على يده علم الموسيقى وأتمّ نهضة زرياب الغنائية " (جودت الركابي ، في الأدب الأندلسي ، ١٩١١م) .

وقد أسهم زرياب في نقل كثير من أساليب الحياة ، وأسباب الرفاهيّة مما رأى في بغداد إلى الأندلس (الداية ، في الأدب الأندلسي ، ٢٠٠٠م) ، وترك فيها - بذكائه وفطنته وفنّه أثراً واضحاً على كلّ جوانب الحياة " من ناحية الملابس ونظامها، وفضلاً عن تدخّله في ترقية الأزياء وتحويرها تدخل أيضاً في تصفيف الشعر وكان الجميع كما نعرف - إلا قلة حاسري الرؤوس فجعل يبتكر أنماطاً عديدة لترتيب الشعر وتصفيفه وتنميّقه .

على أنّ الأمر الذي ينبغي أن نتوقف عنده بعض الشيء هو الموسيقى والغناء وأثر زرياب فيهما ، وكان أفراد الشعب حتى الفقراء منهم ، مولعين بالغناء ... وكان في الأندلس على عهد الحكم مغنيان شهيران هما أول من دخل الأندلس من المغنين اسمهما ، علون وزرقون ، وكانا محسنين ولكن مجيء زرياب إلى الأندلس أطفأ شهرتهما ... إن زرياباً وصل إلى الأندلس في الوقت الذي مات فيه الحكم ، وكاد أن يثني عنانه ويعود أدراجه إلى الشرق، ثم يقنع بالبقاء ويستقبله عبد الرحمن بن الحكم (الأوسط) أحسن استقبال ويُجرى عليه مرتباً كبيراً ويمنحه دوراً وضياعاً وبساتين ، ويُجرى على كلّ ولد من أولاده الأربعة الذين دخل بهم الأندلس مرتباً شهرياً ، إلى غير ذلك من حسن الوفادة والإكرام ، وفي عهد عبد الرحمن هذا تُنشأ دار المدنيات ، والواقع والمنطق أنّ ذلك فعل زرياب ...

إنَّ زرياباً وأولاده الثمانية – لقد زادوا أربعة في الأندلس – من بينهم فتاتان هما حمدونة وعلية ، وجاريتيه متعه وتلميذته مصابيح ، قد ملأوا سماء الأندلس عزفاً وغناءً وألحاناً وأناشيد ، وسار الركب بعدهم عبر أجيال وسنين بحيث لا يخطئ الطريق من يريد متابعة سير الخط الموسيقي في الأندلس...وبذلك نتبهي إلى سمة أخرى من سمات الأندلسيين اكتسبوها بفضل مقدم زرياب وهي حبهم الموسيقي وغرامهم بالغناء وفناؤهم فيهما " (الشكعة ، الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه، ٢٠٠٨م) .

المحور الثاني: وفادة أبي علي القالي إلى الأندلس :

كان أبو علي القالي أعظم من وفد إلى الأندلس أثراً ، من العلماء الذين حملوا معهم شيئاً غير يسير من أدب المشرق ، ويأتي عظم أثر القالي من جهة ارتباط جهوده بالعلم والتأليف ، ومن جهة ما هيأه له الخلفاء العباسيين بدءاً بدعوة عبد الرحمن الناصر له ، ثم ما وجده من حسن استقبال من ابنه الحكم ، وكان فيه ميل إلى الثقافة والمعرفة ، فاهتم بالعلوم والآداب ، وأغرى العلماء بالقدوم إلى الأندلس ، والتأليف لصالح خزائن الكتب الأندلسية ، واستقدم الكتب من خارج الأندلس ، وشجّع الثقافات المتنوعة من أدبيّة ودينيّة وفلسفيّة ، ويكفي مثلاً في هذا الصدد أنه قدّم لأبي الفرج الأصفهاني ألف دينار ذهبي ليرسل إليه نسخة من كتابه (الأغاني) فظهر الكتاب في الأندلس قبل أن يظهر في العراق مركز الخلافة العباسيّة . اشتهر أبو علي في المصادر التراثية بنسبته إلى بلده قاليقلا ، بأرمينيا ، فسعي القالي .

خرج أبو علي من بغداد قاصداً الأندلس (٣٢٨هـ) ، وهو يناهز الأربعين من عمره ، واصطحب معه – وهو ينتقل عبر البراري والقفار – مكتبة منتقاة عامرة بالمؤلفات القيّمة ، وقال يصف رحلته تلك في مقدمة كتابه الشهير (الأمالي) : " فخرجتُ جائزاً بنفسي ، باذلاً لحشاشتي... مؤملاً أن أُوصل العلق النفيس إلى من يعرفه ، وأنشر المتاع الخطير ببلد من يعظمه ، وأُشرفَ الشريف باسم من يشرفه ، وأعرض الرفيع على من يشتره ، وأبذل الجليل لمن يجمعه ويقتنيه ، فمن الله جلّ وعزّ بالسلامة ، وحبا تعالى ذكره بالعافية ، حتى حلت ... فناء أمير المؤمنين عبد الرحمن بن محمد " (القالي ، الأمالي، ١٩٢٦م) .

وقد أوفد الأمير عبد الرحمن ابنه الحكم لاستقبال أبي علي ، فخرج الحكم لاستقباله عندما وصل إلى جنوب الأندلس ، وكان يحفّ بالحكم موكب من المرحبين بالقالي . ثم إن الحكم بذل كلّ جهد لإكرامه والحفاوة به ، وأشعره أنّه وجد وطناً يقدره ، وعرف القالي ما ميزته به الأندلس فعكف على التأليف والتدريس ، وأخذ يلقي محاضرتين كلّ أسبوع واحدة في قرطبة ، والأخرى في الزاهرة . ومن تلك المحاضرات اجتمع له كتاب الأمالي أو النوادر . وكان أهم ما حققته وفادة القالي أن تخرّج على يديه أجيالاً من اللغويين والنحويين ، ووضع القالي بين يدي الأندلسيين ما جلبه من كتب مشرقية مقروءة على العلماء ، ومنها دواوين الشعر القديم وغيرها من أمهات المصادر . ولم يكن القالي إلا نموذجاً لأعداد قليلة من العلماء الذين دخلوا الأندلس لا للقيام لنشر العلم ، وحسب بل للتأليف في موضوعات يقترحها عليهم الحكم ، مراعيّاً أن تتناول المؤلفات جغرافية الأندلس وتاريخها وعلماءها وقضائها وشعر شعرائها .

" وقد اعتنى الأندلسيون بكتاب الأمالي فشرحوه وألّفوا على منزعه كما فعل الشقوري رئيس كتّاب الأندلس في كتابه سراج الأدب ، وحفظه كثير منهم حتّى في النساء ، ومن أجله جعلوا أبا علي أندلسياً بالموطن دون المنشأ ، ليصح لهم الاختصاص به ، مع أنّ القالي لم يكن في قرطبة أعرابياً في أعاجم ، ولا كان وحده فيهم كالذهب في تراب المناجم ، بل كان في قرطبة كثير منهم ، وحسبك بمحمد ابن الحسن من قرطبة ، وهو الذي كان يبالغ القالي في

تعظيمه وشهد له بأنه أنبل أهل الأندلس في اللغة ، وكان إمامَ الأدب في ذلك الزمن أبو بكر الزبيدي " (الرافعي ، تأريخ آداب العرب، ١٩١١).

مؤلفات القالي :

وصفت مؤلفات أبي علي بأنها كانت في غاية التقييد والضبط والإتقان ، ومن أبرزها : كتاب المقصور والممدود ، وصفه بعضهم بأنه : " مستقص في بابه ، يشد له شيء في معناه ، لم يوضع مثله " ، وله كتاب (خلق الإنسان) ، وكتاب (مقاتل الفرسان) ، وكتاب (فعلتُ وأفعلتُ) ، وكتاب (الأمثال) ، وكتاب البارع الذي قال فيه الزبيدي : (ولا نعلم أحداً من المتقدمين ألف مثله " .

على أن أشهر مصنفات القالي هو كتاب (الأمالي) أو (النوادر) ، والأمالي نوع من المحاضرات أو هي تقارب مفهوم المحاضرة في عصرنا هذا كما ذكر الدكتور عمر الدقاق في مقدمة كتاب (شذور الأمالي لأبي علي القالي) ، وكانت الأمالي تملئ في الغالب من الذاكرة وتلقى إلقاءً مرتجلاً عن ظهر قلب . وقد ألف القالي كتاب الأمالي للخليفة عبد الرحمن الناصر وتوجه إليه بالثناء في خطبة الكتاب .

وقال ابن حزم - حسبما نقل ياقوت - في معجم الأدباء : " كتاب نوادر أبي علي مبارٍ لكتاب الكامل الذي جمعه المبرد ، ولئن كان كتاب أبي العباس أكثر نحواً وخبراً ، فإن كتاب أبي علي أكثر لغةً وشعراً " (معجم الأدباء، ياقوت الحموي، ١٩٧٣م).

ومن الأدلة على القيمة العلمية لكتاب (الأمالي) قول ابن خلدون في مقدمته في فصل علم الأدب : " وسمعنا من شيوخنا في مجالس التعليم أن أصول هذا الفن وأركانه أربعة دواوين : أدب الكاتب لابن قتيبة ، وكتاب الكامل للمبرد ، وكتاب البيان والتبيين للجاحظ ، وكتاب النوادر لأبي علي القالي البغدادي وما سوى هذه الأربعة فتبع لها وفروع عنها وكتب المحدثين في ذلك كثيرة " (ابن خلدون ، المقدمة ، ٢٠٠٤م).

وأوضح القالي نفسه ، في مقدمة كتابه محتوى الأمالي ، فقال : " وأودعته فنوناً من الأخبار وضروباً من الأشعار ، وأنواعاً من الأمثال ، وغرائب اللغة . على أنني لم أذكر فيه باباً من اللغة إلا أشبعته ، ولا ضرباً من الشعر إلا اخترته ولا فناً من الخبر إلا انتخلته ، ولا نوعاً من المعاني والمثل إلا استحدثته " (أبو علي القالي ، الأمالي).

تلاميذ أبي علي القالي وشخصيته :

ما أن حلَّ أبو علي في قرطبة حتى ذاع خبره ، وكثر قاصدوه ، وأقبل عليه الطلبة ، فكان منهم الشعراء والأدباء والعلماء ، وكان وليَّ العهد الحكم أول من تتلمذ عليه بتوجيه من والده الخليفة عبد الرحمن الناصر ومن الصعب تحديد عدد تلامذة القالي في بلاد الأندلس لكن أنبه تلامذته على الإطلاق هو أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدي الإشبيلي ، وهو شاعر وأديب راسخ القدم في اللغة والنحو ومن مؤلفاته (الواضح في النحو) ، (طبقات اللغويين والنحويين) ، و (مختصر العين) . وكان أبو علي القالي رجل علم وثقافة ، متمكناً من اللغة والنحو ، غزير العلم ، كثير المحفوظ ، جيد الرواية ، متمرساً بالتأليف أميناً في النقل ، بعيداً عن الغرور ، شديد الأتزان ، جَمَّ التواضع ، زاهداً في مظاهر الجاه والنفوذ ، عصامياً ، يروي ظروف نشأته ورحيله من بلدته الكرديّة النائية إلى العراق دونما حرج أو تردد .

والجدُّ هو الطابع الغالب في كتب القالي ، ولا سيما في كتابه الأمالي وقلماً يجنح فيه إلى الفكاهة والهزل ، أو البذاءة والمجون ، وقلماً تجد فيه أشعاراً وأخباراً تخدش الحياء والشعور . وقد خالف القالي بنهجه هذا نهج أصحاب الموسوعات الأدبية كالجاحظ ، وابن قتيبة ، وأبي حيان التوحيدي ، وابن بسام ، وهذا دليل آخر على شخصية القالي

الجاذة ، الرصينة العفيفة ، ولأبي عليّ القالي ابن اسمه جعفر ، ذكره ياقوت الحموي في (معجم البلدان) ، وصفه بقوله : كان أيضاً أديباً ، فاضلاً ، أريباً . وقد توفي أبو عليّ في قرطبة سنة (٣٥٦هـ) .

" وصادف علم أبي عليّ القالي - وغيره من العلماء الوافدين - وثقافتهم المشرقية هوى في نفوس الأندلسيين ملوكاً وسوقه على السواء ، جلسوا في جامع قرطبة ... ونقلوا أمهات الكتب لأعلام الشرق في العلم والأدب ، وإلى هؤلاء جلس كثيرٌ من الشعراء فانطبعوا باتجاهاتهم ، وكان منهم أبو الفتوح ثابت بن محمد الجرجاني . وكان الغالب على أدواته علم اللسان ، وحفظ الغريب ، والشعر الجاهلي والإسلامي ، إلى المشاركة في أنواع التعاليم .

وقد أثر على أمراءهم حبّ القديم والدعوة إلى احتذائه بطريق مباشر أو غير مباشر ، فالمظهر المعروف بابن الأفطس كان يقول لشعرائه من لم يكن شعره مثل شعر المتنبي ، وشعر الحصري فليستك ... لا يرضى بدون ذلك .

المحور الثالث: رحلات الأندلسيين إلى المشرق :

وبالمقابل كانت هنالك رحلة من الأندلس إلى المشرق " وكان الحكم المستنصر بن عبد الرحمن الناصر أباً للثقافة في الأندلس ، لقد كان محباً للعلوم مكرماً للعلماء ، كما كان جماعاً للكتب ، ... وكان يرسل التجار إلى المشرق ، ويمدهم بالأموال حتى يجلبوا إلى الأندلس ما لم تهد مثيلاً له من قبل ، وكان المستنصر نفسه يعرف القيمة العلمية لكل كتاب ، ومن ثم تكون المكافأة لصاحبه على قدر قيمة كتابه " (الشكعة ، الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه، ٢٠٠٨م) .

والدور المهم في هذا الاتصال الثقافيّ قام به : " العلماء والأدباء من أهل الأندلس فكانوا يرحلون إلى المشرق فيلقون الأئمة ويأخذون عنهم ، ثم ينقلون إلى الأندلس برؤية ما أخذوه فيثونونه في أهلها مسنداً إلى أدباء العراق ، كسوار بن طارق القرطبي مولي عبد الرحمن بن معاوية فإنه حج ودخل البصرة ولقي الأصمعي ونظر أمره ، ثم انقلب إلى الأندلس وأدب الحكم ، ومن ولده محمد بن عبد الله بن سوار ، حجّ أيضاً ، ولقي أبا حاتم بالبصرة والرياشي وغيرهما ، وأدخل الأندلس علماً كثيراً ، وقاسم بن أصبغ البياني (نسبة إلى بيانة من أعمال قرطبة) فقد سمع بالأندلس ممن كان بها ، ثم رحل إلى المشرق سنة ٢٧٤هـ فسمع بمكة والكوفة وبغداد ، ومن أئمة الفقه والحديث ، وكتب عن ابن أبي خيثمة تأريخه ، وسمع من ابن قتيبة كثيراً من كتبه ومن المبرد وثعلب وابن الجهم ، ومن آخرين ، وسمع بمصر من محمد بن عبد الله العمري ، ومطلب بن شعيب .. وانصرف إلى الأندلس بعلم كثير فمال الناس إليه ... وأخذوا عنه " (المقري ، نفح الطيب، ١٩٦٨م) .

" وممن رحل إلى المشرق محمد بن عبد الله بن يحيى من قضاة الناصر (توفي سنة ٣٣٧هـ) ، وكان شاعراً مطبوعاً فقد رحل إلى المشرق وسمع من ابن الإعرابي وغيره ، ثم حدث عنه بالأندلس ... وكانت أمهات كتب الأدب التي تُولف بالعراق تروى بالسند إلى مؤلفيها ، على تفاوت بين الأسانيد قوة وضعفاً ، ومن ذلك قول الأمير الحكم المستنصر ، لم يصحّ كتاب الكامل عندنا من رواية إلا من قبل ابن أبي قلاعة ، وكان ابن جابر الإشبيلي قد رواه قبل بمصر ، وما علمتُ أحداً رواه غيرهما ، وكان ابن الأحمر القرشي يذكر أنه رواه ، وكان صدوقاً ولكن كتابه ضاع ، ولو حضر ضاهي الرجلين المتقدمين " (المقري ، نفح الطيب) .

" وقد يكون دخول العراق عند بعض العلماء من قبيل قولهم (من حفظ حجة على من لم يحفظ) لأنّه عندهم زيادة في الاطلاع وتحقق بالثقة في الرواية " (الرافعي ، تأريخ آداب العرب) .

المحور الرابع: ثمار الاتصال بين المشرق والأندلس:

ومما تقدم نجد أنّ الأندلسيين نقلوا علوم المشاركة ، ورووها وتباروا في ذلك وتنافسوا ، واقتفوا آثارهم في التأليف وفي الأدب شعره ونثره ، فمن آثار ذلك كتاب ابن عبد ربّه العقد الفريد ... وفي النحو البصري عنايتهم حفظاً

وشرحاً كما فعل " حمدون النحويّ المتوفى بعد المائتين ولعلّه أول من عرفه ... وكان هو والمهدي متعاصرين ولهما زعامة النحو واللغة ، إلا أنّ المهدي امتاز باللغة وامتاز حمدون بالنحو ... فكان فيه الغاية التي لا بعدها وقد أخذ عن علماء ذلك العصر ابن وضّاح والخشني ومطرف بن قيس .

واشتهر في القرن الثالث الخشني القرطبي وهو نحويّ لغوي وشاعر لقي بالمشرق السجستاني والرياشي والزيادي ، وأدخل الأندلس كثيراً من اللغة والشعر الجاهلي ، وتوفي سنة ٢٧٦هـ عن ثمانين .

وكان يعاصره محمد بن عبد الله القرطبي وهو الذي أخذ عنه أهل الأندلس الأشعار المشروحة .

ومحمد بن عبد السلام بن ثعلبة ، قد أدخل الأندلس أيضاً كثيراً من كتب اللغة والشعر الجاهلي .

وجابر بن قيس البليّ النحوي الشاعر الأديب المتوفى سنة ٢٩٩هـ .

ومحمد بن أصبغ المتوفى سنة ٣٠٦هـ وهو مولى الوليد بن عبد الملك وهشام بن الوليد النحوي العروضي

الأديب وهو مؤدب أولاد الناصر توفي سنة ٣١٧هـ .

ومحمد بن حيي المعروف بالرياحي مؤدب المغيرة بن الناصر ، وهو أمام في العربية والأدب فقيه شاعر .

وأحمد بن إبراهيم بن أبي عاصم ، حافظ للعربية والغريب متقدم في النقد ، شاعر منفرد ، شرح أكثر

دواوين العرب توفي سنة ٣١٨هـ .

وقاسم بن أصبغ (٢٤٧هـ-٣٤٠هـ) وهو فرد في النحو والغريب والشعر وكانت إليه الرحلة للأندلس كما كانت

بالمشرق يومئذ لأبي سعيد بن الأعرابي .

ثم أبو عبد الله المعروف بابن خُنيس ، وكان كاتباً بليغاً عالماً باللغة والغريب والأخبار والتاريخ ، توفي سنة

٣٤٣هـ .

ومما حمل أبو عليّ القاليّ معه من الكتب المشرقية وكتب القدماء " شعر ذي الرمة ، وشعر الخنساء ، شعر

الحطيئة ، وشعر جميل بن معمر ، وشعر معن بن أوس ، والمفضليات للمفضل الضبيّ ، وشعر النابغة الذبيانيّ ،

ونقائض جرير والفرزدق ، وشعر مالك بن الربيع ، وشعر النابغة الجعدي ، وشعر عدي بن زيد ، وشعر عمر بن أبي

ربيعة ، وشعر أبي نواس ، وجزء من شعر أبي تمام .

وفي فهرسة ابن خير حديث مستفيض عن إعجاب أهل الأندلس بأبي تمام والمتنبي .

أما أبو تمام فإنّ شعره ذاع هناك عن طرق عدّة منها رواية الرحالة البغداديّ أبي اليسر إبراهيم بن أحمد

الرياضي ، وهو الذي نشر في إفريقية والأندلس شعر المحدثين وأخبارهم ، كما يذكر في هذا الصدد اسم عثمان بن

المثنى أحد مؤدبي قرطبة (توفي سنة ٢٧٣هـ) وفي شأنه يقول الزبيدي في طبقاته إنّّه رحل إلى المشرق فلقي حبيب بن

أوس فقرأ عليه شعره ، وأدخله الأندلس .

وممن روى شعر أبي تمام الأديب الشاعر مؤمن بن سعيد الذي تقابل معه في بغداد .

كما ذاع ديوان الحماسة لأبي تمام بين أهل الأندلس واعتنوا بشرحه ، ومن شرحه بن سيدة ، وعاصم بن

أيوب البطليوسي ، وأبو عامر بن ينق الشاطبي وأبو إسحاق بن ملكون صاحب (إيضاح المنهج) وفيه جمع بين كتابي

(التنبيه) ، و (المنهج) لابن جني في شرح الحماسة " (عناي ، تاريخ الأدب الأندلسي ، ١٩٩٩م) .

ومن ثمار هذا الاتصال بين الأندلس والمشرق أن شاع قول الشعر في كلّ طبقات المجتمع ، ولم يكن مقتصرأ

على الشعراء والأدباء وإنّما شاركهم في ذلك الأمراء والوزراء والكتّاب والفقهاء والفلاسفة والأطباء وأهل النحو واللغة

فالمجتمع الأندلسيّ بسبب تكوينه الثقافي القائم على علوم العربيّة وآدابها ، ثم طبيعة الأندلس التي تستثير العواطف ، وتحرك الخيال ، كلّ ذلك جعل المجتمع يتنقّس الشعر طبعاً وسليقة ، وكأنّما تحول معظم أهله إلى شعراء وكتّاب . "وأخذت دائرة الشعر الأندلسيّ تتسع ، وبدأت أصوله ترسخ بجهود شعراء نبتوا في البيئة الأندلسيّة ذاتها واقفين على مفترق الطرق بين مذهبي أبي تمام والبحترّيّ وتجديدات بشار وأبي نواس لذلك جعلوا شعر المحدثين مثلاً يحتذى ، بمعنى أن الشعر المحدث - لا شعراً العرب الأوائل - هو الذي استوحوه في أشعارهم وليس معنى هذا أنّهم لم يعرفوا شعر العرب الأوائل ، ولكن نماذج الشعر المحدثه نالت القسط الأكبر من إعجابهم ، وكانوا على وعي بأنّ الشعر العربي الذي وصلهم من العراق يمثل مذهبين : المذهب القديم والمذهب المُحدَث " (أبو سم ، آراء حول العلاقة بين الأدب والدين) .

ونجد ابن بسام صاحب كتاب (الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة) صادقاً عندما يصف أهل الأندلس بتقليد أهل المشرق ، واتباع مذاهبهم ، والرجوع إليهم ، حيث قال : " إنّ أهل هذا الأفق أبوا إلا متابعة أهل المشرق ، يرجعون إلى أحاديثهم المعتادة ، رجوع الحديث إلى قتادة " وبين أيدينا مما يؤكّد ذلك من أخبارهم ، ويحقّ لهم هذا الإعجاب وهذا الاقتداء ، فإنّنا نجد " أن الأدب الأندلسي لا يبرّزه في التأريخ إلا الأدب العراقي ، ولقد يكون في الأندلس ما ليس في العراق ، من بعض فروع الحضارة والصناعة ، غيرالفرق ما بين المواطنين في زينة الطبيعة ونضارة الإقليم ، إلا أنّ الأدب العراقي ممتاز بمتانة اللغة لقربه من البادية ، ولاستفحال الرواية هناك ، ولكونه أصلاً ، حتى أن الأندلسيين أنفسهم كان يلقبون نابغهم بأسماء المشاركة ، فيقولون في الرصافي إنّهُ ابن روميّ الأندلس ... ومحمد بن سعيد الزجالي الأديب الحافظ : أصمعيّ الأندلس لحفظه وذكائه وابن زيدون بحترّيّ الأندلس ، وابن درّاج ، متنبّي الأندلس ، ..وحمدة بنت زياد الشاعرة الأديبة خنساء المغرب "وما كان ذلك منهم إلا لإعجابهم بشعر هؤلاء المشاركة واستحسانهم له ، والشعراء الأندلسيون يصرّحون بذلك على نحو قول ابن خفاجة في مقدمة ديوانه : " ما تصفحت مثل شعر الرضي ، ومهيار الديلمي ، وعبد المحسن الصوري ، وما حذا حذوه ، وأخذ مأخذه حتى تملكني من تلك المحاسن الرائعة الرائقة ، والألفاظ الشفّافة الشائقة ، ما يناسب بُرد الشباب رقّة ، وبُرد الشراب ريقّة ، فما كان إلا أن ملت إليه ، وأقبلت عليه أروقه وأرويه ، وأحاول التشبّه بواحد واحد فيه " .

" ولم يقف عند هذا الحد ليتركنا ندرس شعر الرضي والديلمي لنرى ما يشاكله في شعر الخفاجي بل ضرب لنا عدّة أمثلة في مقدمة ديوانه ، أو في صلبه فما قاله ناظراً إلى الشريف الرضي " (شلبى ، دراسات أدبية في الشعر الأندلسي، ١٩٧٣م) .

ألا ليت أنفاسَ الرياحِ النواسمِ	يُحَيِّينَ عَنِّي الواضحاتِ المباسمِ
ويلثمنَ ما بين الكثيبِ إلى الحمى	مواطنَ أخفافِ المطيّ الرواسمِ
ويرمينَ أكنافَ العقيقِ بنظرةٍ	تردّدُ في تلك الرّبى والمعالمِ
فما أنسه إلا أنسى يوماً بذى النقى	أطلنا به للوجدِ عضّ الأباهمِ

المصادر والمراجع:

١. جودت الركابي _ في الأدب الأندلسي_ القاهرة_ مصر_ ١٩١١ م .
٢. سعد إسماعيل شلبي _ دراسات أدبية في الشعر الأندلسي دار النهضة للطبع والنشر _ القاهرة _ مصر _ ١٩٧٣ .
٣. عبدالرحمن بن خلدون _ المقدمة _ د. حامد أحمد الطاهر، القاهرة ، مصر ، دار الفرات للتراث ، ط ١ ، ١٤٢٥ ، ٢٠٠٤ .
٤. أبوعلي القالي _ الأمالي _ طبعة دار الكتب المصرية _ ١٩٢٦ .
٥. الفيروزبادي _ القاموس المحيط بيروت ، مؤسسة الرسالة ، ط ٢ ، ١٤٠٧ هـ- ١٩٨٧ م .
٦. محمد الحسين أبو سم _ آراء حول العلاقة بين الأدب والدين _ دار جامعة أم درمان الإسلامية .
٧. محمد رضوان الداية _ في الأدب الأندلسي _ بيروت _ لبنان _ دار الفكر المعاصر _ دمشق _ سوريا _ دار الفكر _ ٢٠٠٠ م .
٨. محمد زكريا عناني _ تاريخ الأدب الأندلسي_ الاسكندرية _ دار المعرفة الجامعية ١٩٩٩ م .
٩. مصطفى الشعكة _ في الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه _ بيروت _ لبنان _ دار العلم للملايين _ ط ٢٣ _ ٢٠٠٨ م .
١٠. مصطفى صادق الرافعي _ تاريخ آداب العرب _ القاهرة _ مصر _ دار المعارف .
١١. المقري _ نفع الطيب _ تحقيق إحسان عباس _ دار صادر _ ١٣٨٨ هـ _ ١٩٦٨ م .
١٢. ياقوت الحموي ، معجم الأدباء ، تحقيق احسان عباس ، دار الغرب الإسلامي ط ١ _ ١٩٩٣ .